الأنساق البلاغية من المشروع إلى الإنجاز

أ.د. دليلة مزوز

قسم اللغة والأدب العربي – كلية اللغة والأدب العربي والفنون

جامعة باتنة1/ الجزائر

Rhetorical Patterns: From Project to Realization

Prof. Dr. Dalila Mezouz

Department of Arabic Language and Literature
Faculty of Arabic Language, Literature, and Arts
University of Batna 1/Algeria

https://doi.org/10.64704/dawat.2026124707

ملخص البحث

يتناول هذا المقال البلاغة العربية بوصفها منظومة معرفية متكاملة تشكَّلت عبر مسار تاريخي وتحوُّلات ثقافية وفكرية متعدِّدة، ساعيًا إلى إعادة قراءتها في ضوء الأنساق الناظمة التي حكمت تشكُّلها ووظائفها الخطابية. وينطلق من فرضية مفادها أن تعدُّد تعريفات البلاغة عند القدماء لا يعود إلى اضطراب مفهومي، بل إلى اختلاف السياقات الثقافية والمقامات التداولية، مما أفرز أنساقًا بلاغية متنوِّعة اندمجت لاحقًا في أنساق تحوُّل أكثر نضجًا، أسهمت في ضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى، وبين الجمالي والوظيفي. ويبرز المقال كيف تفاعلت البلاغة مع خطاب النفس من خلال بعدها الجمالي والذوقي، حيث تحقَّق الإمتاع والتأثير الوجداني عبر حسن النظم، والتلاؤم الصوتي، وانسجام البنية التعبيرية، وهو ما جعل البلاغة أداة فاعلة في استمالة المتلقي والحفاظ على حيوية النص. وفي المقابل، يكشف عن انخراط البلاغة في خطاب العقل عبر تأسيسها لبنية حجاجية قائمة على الاستدلال، وترتيب المعاني، ومراعاة السياق والمقام، بما يجعلها وسيلة للإقناع وتصحيح الفهم وبناء المعنى. ويؤكد المقال أن إسهامات أعلام البلاغة العربية، ولا سيما في تنظيرهم للنظم، والسياق، ومقتضى الحال، قد أسهمت في تحويل البلاغة من ممارسة وصفية إلى نسق معرفي وظيفي يوازن بين الإمتاع والإقناع، ويمنح الخطاب العربي قدرة على التكيُّف والتجدُّد. ويخلص إلى أنَّ البلاغة العربية، في جوهرها، ليست علمًا جامدًا أو تراثًا مغلقًا، بل جهازًا تحليليًا ديناميًا قادرًا على استيعاب تحوّلات الخطاب، ومواكبة أسئلة النقد واللسانيات الحديثة، بما يؤهِّلها للاشتغال ضمن أفق علمي معاصر قابل للتداول في البحث اللساني العالمي.

Abstract

This article examines Arabic rhetoric as an integrated system of knowledge that has been shaped through a historical process and various cultural and intellectual transformations. It seeks to reinterpret this system in light of the governing patterns that shaped its formation and its rhetorical functions. The article begins with the premise that the multiplicity of definitions of rhetoric among the ancients does not stem from conceptual confusion, but rather from differing cultural contexts and pragmatic situations. This resulted in diverse rhetorical systems that later merged into more mature transformations, contributing to a more precise understanding of the relationship between word and meaning, and between the aesthetic and the functional meaninig.

The article highlights how rhetoric interacts with the discourse of the soul through its aesthetic and tasteful dimensions, where enjoyment and emotional impact are achieved through elegant composition, harmonious sound, and coherent expressive structure. This makes rhetoric an effective tool for engaging the recipient and maintaining the text›s vitality. Conversely, it reveals rhetoric›s engagement with the discourse of reason by establishing an argumentative structure based on inference, the arrangement of meanings, and consideration of context and situation, thus making it a means of persuasion, correcting misunderstanding, and constructing meaning. The article emphasizes that the contributions of prominent figures in Arabic rhetoric, particularly their theorization of composition, context, and the exigencies of the situation, have transformed rhetoric from a descriptive practice into a functional cognitive system that balances enjoyment and persuasion, granting Arabic discourse the capacity for adaptation and renewal. It is concluded that Arabic rhetoric, in its essence, is not a rigid science or a closed heritage; rather it is a dynamic analytical apparatus capable of absorbing the transformations of discourse and keeping pace with the questions of modern criticism and linguistics, thus qualifying it to operate within a contemporary scientific horizon that is open to discussion in global linguistic research.

مقدمة

إنّ دراسة الأنساق البلاغية تعدُ من أهم الطروحات التي برزت في الفكر البلاغي، حيث تبحثُ في سياقاته المختلفة، لتقف على مراحل بناء النظرية البلاغية العربية في التراث اللغوي، واستحضار النص الباني بكل ما يرتبط به من شروط وقوانين تعين المشتغلَ في هذا الحقل المعرفي على تنظيم الكلام وضبطه وتصنيفه، بل وتحليله بما يتوافق وضوابط العقل وخلجات النفس، فيأتي الكلامُ المنسحبُ على ألسنة المتمرسين من اللغويين والأدباء وعلماء الدين حجةً في الصياغة ودرجةً عالية في النظم، كل ذلك من أجل فهم النص القرآني الذي التفتْ حوله عقول المفكرين والبلاغيين على مر العصور لفهم أسراره، وسبر أغواره، والوقوف على أنساقه ووصفها.

أما عن اختيار الموضوع فيعود إلى الرغبة في تسليط الضوء على البُعد النظري والعملي للأنساق البلاغية، واستكشاف مراحل تحولها من مشروع فكري إلى تطبيق فعلي ضمن الخطاب العربي.

أما أهمية الموضوع فهي تتحدد في مايأتي:

١- يسهم في تعزيز فهمنا للبلاغة بوصفها نظاماً معرفياً يتجاوز الحدود التقليدية لفنون المعاني والبيان و البديع.

٢- يقدم إطاراً جديداً لدراسة تأثير الأنساق البلاغية في تطور النقد الأدبي وتفسير النصوص.

٣- يتيح الفرصة للربط بين المفاهيم البلاغية القديمة والاتجاهات الحديثة في التحليل الأدبي والأسلوبي.

أما منهجية المقال، فقد اعتمدت الباحثة فيها على المنهج الوصفي بالآلية التحليلية لتتبع مسار الأنساق البلاغية، في تاريخ البلاغة العربية. مبينة كل نسق على حدة مع سياقات تشكله.كما بني المقال وفق خطة علمية تعنى بتتبع الأنساق وبيان أنواعها والوقوف على تحليلها نبينها في النقاط الآتية: مقدمة وثلاثة مباحث، وخمسة مطالب، وخاتمة.

١. المبحث الأول: البناءُ النسقيُّ للبلاغةِ العربيةِ (نسقُ المفاهيمِ وتحديد الرُؤَى):

المطلب الأول: ميلادُ البلاغةِ:

كانت البيئة العربية في العصر الجاهلي قد هيأت للقول الشعري ظروفا ناشئةً تدفع النص إلى النماء والعمق، وكان الشاعر يتذوق المعنى فيخرجه على عتبة اللفظ المتدحرجة. وظل هذا الشعر الذي جُمع بين دفتي اللفظ والمعنى مراقبا لمسبارين نقديين هما: مسبار الشاعر الناطق بالقول، ومسبار الحكم على النص الذي ينظر فيه، ويرصد الاعوجاج في بنياته أو معانيه. فيقبلها أو يرفضها. فالذوق عنده تحركه الطباع ويشرف عليه العقل والإدراك "والعلة في قَبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه، ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله، وتكرُّهه لما ينفيه. إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل بما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها ورودا لطيفا باعتدال لاجور فيه وبموافقة لا مُضادة معها"[1].

فالطرفان المتداولان للنص – أعني الشاعر الناطق بالقصيدة، والشاعر المتذوق لها –ينظران في النص ويفحصان بنياته المتراكمة، ويكشفان ما فيها من خلل؛ فمن البنية الصرفية إلى البنية النحوية إلى البنية الدلالية. وأداتهم في ذلك هي لغتهم البنَّاءة الممتدة على المستوى الخطي. ثم يتأمل الناظر الثاني في النص ويقف على ما أجادت به بنياته من رِكَابِ المعنى الضارب في عمق الشاعر، والجامع بين ما يجول في خاطره، وما تُسر له بها نفسه الذوَّاقة لجيّد الكلام وعذبه.

ولم تكن هذه الرؤى الباسطة لسلبيات النص الشعري تسبح بعيدا عن آليات النقد الحديث، بل كانت شعلة نقدية امتدت عبر الزمان وقويت جذوتها لما تلقفتها آراء العلماء، وشدهم الاهتمام إليها، وتوسعت النصوص وتنوعت وارتقت وعلت، فظهر النص القرآني وصادَقَه النَّص الحديثي، وأحاطت بهذه النصوص المضيئة نصوصٌ نثرية وأخرى شعرية. حركت نسيج التأليف ووسعت في قمته. ولما كانت هذه النصوص كلها، فإنه من البَدَهي أن يكون هناك إبداع ينفذه التصوير البلاغي، الذي تفنن فيه حاملوا أقلام النص وكُتابه. وزاد الاهتمام بهذا التصوير، وتلك المجازات وضروب

القول وسبله وظهرت معه سمات العلم وحدوده. ولكن كيف يمكن أن نصف تعريفات البلاغيين؟ وماهو نسق تصنيفها؟.

لم يكن الأمر سهل المنال أن نحكم على جهد البلاغيين في تعريف البلاغة الذي يمتد من العصر الجاهلي إلى غاية القرن الثامن الهجري. والذي نقف عليه هنا هو: أنَّ من أمسك بزمام البلاغة وضبطها، وجمع آراء من سبقوه من العرب والعجم، هم لفيف متميز من البلاغيين يتقدمهم الجاحظ في بيانه(ت ٢٥٥هـ)، وابن المعتز صاحب البديع (ت ٦٢٩هـ)، وابن رشيق القيرواني صانع العمدة (ت٤٥٦هـ)، والجرجاني في دلائله (ت ٤٧١هـ)، والقرطاجني مؤلف منهاج البلغاء وسراج الأدباء (ت٤٧٤هـ)، والسكاكي في مفتاحه (ت ٦٢٦هـ)، والقزويني في شروحه (ت٦٨٢هـ).

المطلب الثاني: الأنساق البلاغية عند رواد البلاغة العربية:

فالجاحظ أسّس للبلاغة العربية؛ حيث انبرى في بيانه إلى جمع كل ما عرفه عن البلاغة مريدا بذلك الإحاطة بالعلم وخواصّه، إذ ساق لنا تعريف ابن المقفع الذي عرض لنا وجوه المعنى ومجاريه، وذكر منها أحد عشر وجها منها: السكوت، والإشارة، والاحتجاج، والشعر والرسائل والخطب...." ثم أردف قائلا: ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة"[٢]. فالجامع بين ما أشار إليه ابن المقفع في ذكر معاني وجوه البلاغة هو إيراد المعنى بإيجاز. ويلتقي هذا التعريف مع ما في نفس الجاحظ من رؤى ناضجة للبلاغة ويضم إليه تعريف عمرو بن عبيد، وغيرها من تعريفات العجم من اليونان والروم، والفرس والهنود. إذ لم يكن سوقه لهذه التعريفات عرضا، وإنما كان للفصل في أمر البلاغة، وذكر البيان، وأعتقد أن البيان أبلغ من البلاغة عنده؛ لتوفر شروط لم يجدها الجاحظ في مصطلح البلاغة، وهي قوة الإنجاز والتعبير عن الغرض المطلوب والفائدة المرجوة. فالنسق الذي ينتظم فيه فكر

الجاحظ هو النسق الثقافي والاجتماعي، الذي يحيلنا إلى الظروف المحيطة بإنجاز الفكر والتأسيس له. بل ووضح هندسة يمكن تلمسُها من استقراء كل ماله علاقة بعلم البلاغة في كتابه البيان؛ ذلك أن تعريف العلم هو علم في حد ذاته. فعندما يقول معرِّفا البيان: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف له قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مراد الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام"[٣]. فإنه قد أحاط بجوانب العلم، وبيّن خصائصه، وجذب إليه كل ما يرتبط بفن القول من الشعر والخطابة. وأما البيان فهو خاص بالخطابة والنثر، وقد ارتبط أكثر بالنص القرآني، إنه تعريف جامع للدلالات اللغوية وغير اللغوية، حاشد كل دليل يؤدي إلى إقناع السامع وإفهامه مبينا طرفي عملية التواصل اللذين يعكسهما اللفظ والمعنى. هذه الثنائية التي تمتد أيضا مع بيان الجاحظ وممارسته البلاغية فتُظهر البيان بشقيه اللذين يتحقق بهما، إنهما: مقتضى الحال،والفصاحة، إذ بهما يتحقق قصد البلاغة. ويؤكد هذا فيما نقله عن الأصمعي من قوله "البليغ من طبَّق المفصَّل، وأغناك عن المفسر"[٤] فتطبيق المفصل، وإصابة المقدار مرادف لمعنى المطابقة.

وأما الفصاحة فهي على شقين: تجنب اللحن الناجم عن مخالطة الأعاجم، وعيوب النطق. يقول: " من زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب، والإغلاق، والإبانة، والملحون، والمعرَب كله سواء، وكله بيان. وكيف يكون ذلك كله بيانا ولولا طول مخالطة السامع للعجم، وسماعه للفاسد من الكلام كما عرفه، ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا...وإنما عُني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء"[٥].

ويمكن إجمال هندسة البيان عند الجاحظ وفق تصور محمد عابد

الجابري نبينها وفق المخطط الذي سماه: شروط الإرسال ومتطلبات الحصول على الاستجابة.

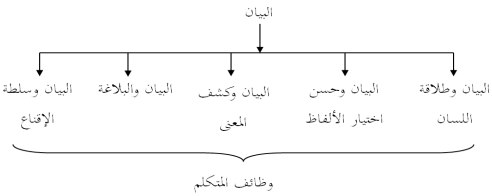

يبدو من المخطط أن الجاحظ قد اعتنى بدور المتكلم في عملية التخاطب، غير أن الحقيقة خلاف ذلك، فالمتكلم يشرف على إنتاج الكلام وإيصاله إلى السامع، فكل هذه الشروط أسست من أجل إفهام السامع وإقناعه. فالذي يراه محمد عابد الجابري عن الجاحظ أنه:"لم يكن معنيا بقضية الفهم، فهم كلام العرب وحسب، بل لقد كان مهتما أيضا –ولربما في الدرجة الأولى– بقضية الإفهام، إفهام السامع وإقناعه، وقمع المجادل وإفحامه...إن ما سيشغله هو شروط إنتاج الخطاب وليس قوانين تفسيره"(٦).

لقد كان لآراء الجاحظ وقع كبير على علماء عصره مع اختلاف توجههم، وتفرق مشاربهم؛ فهذا ابن المعتز الذي تبنى أفكاره في التأسيس لكتابه " البديع " الذي عُدَّ من أهم كتب البلاغة تنظيرا وتصنيفا –فقد أجاد فيه صاحبه وأبدع؛ إذ تأثر بمنهج الجاحظ في تصنيف الأساليب البلاغية لاسيما في كتابه البيان والتبيين، أي هو إزاء سُنَّة متّبعة، وليست مبتدعة، فلم يكن هو الوحيد في الساحة من يتّبع هذا النهج؛ وكأنّما هؤلاء يتعمدون ترك الدائرة لغيرهم من العلماء لاستكمالها.

أبدى ابن المعتز اهتماما واضحا بالاستعارة التي قدمها على سائر ضروب البديع، كما قدم تصنيفًا دقيقًا للمحسنات البديعية مثل الجناس والطباق والمقابلة. فقد رتب النصوص المساقة إلينا وفق قائليها؛ حيث بدأ بالقرآن ثم الحديث، ثم كلام الصحابة، ثم الخلفاء والأمراء وغيرهم. كل ذلك للوقوف على بديع الاستعارة في كلام الله، وكلام العرب، إذ عدَّها لونا بيانيا يرفع من قيمة الكلام ويحفظ له رونقه وجماله، ويجلي معناه وبيانه يقول:" الباب الأول من البديع وهو الاستعارة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ

هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٧]، وقال أيضا: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[٨].

فأما أحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم– فقوله:" خيرُ النَّاسِ رجلٌ ممسكٌ بعَنَانْ فرسِه في سبيل الله، كلما سمَعَ هَيْعةً طار إليها "[٩].

ومن أقوال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه – " العلمُ قِفلٌ مفتاحُه السُّؤالُ"[١٠].

ثم يورد بيتا من معلقة امرئ القيس، يقول فيها:

وليلٍ كموجِ البَحرِ أرْخىَ سُدُولَه عليَّ بأنواعِ الهُمُومِ ليبتَلِي

كل هذه النماذج القولية سيقت بقوة الاستعارة التي زادتها وضوحا وعمقا. يواصل ابن المعتز في عرض تصنيفه لأنواع البديع التي رتبها بحسب الأهمية والقيمة الجمالية والمعنوية. إذ ذكر التجنيس (الجناس) الذي يسهم في التصوير والتنميق، تعقبه المطابقة التي شرفت عنده فراح يتحدث عنها مبينا قيمتها يقول:" وإنما جمال المطابقة وبلاغتها، بل وروعتها، أن يرشح فيها نوع من أنواع البديع يشاركها في البهجة والرونق، كقول امرئ القيس:

مِكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا كجُلمُودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيْلُ منْ علِ

فالمطابقة صورة بلاغية مركبة من الطباق (مكر، مفر)، (مقبل، مدبر)، والتكميل (معًا)، والتشبيه التمثيلي الوارد في البيت؛ تشبيه الفرس بالصخر، والجناس الناقص (مكر، مفر). ولعل الفكرة المبينة هنا هي تضافر عدة محسنات بديعية مع التشبيه لتشكيل الصورة البلاغية المعبرة عن المشهد الحقيقي[١١].

يقر حمادي صمودي بمكانة كتاب البديع الذي رأى فيه مادة علمية قيمة إذ يمثل "منعرجا حاسما في التأليف البلاغي ومساهمة فعالة في بلورة حدود العلم وتخليصه من تبعية العلوم الأخرى"[١٢]

سارت آراء الجاحظ يتداولها العلماء عصرا بعد عصر، ووصلت واضحة إلى الجرجاني الذي أحسن جمع خيوط البلاغة، إذ يمثل حلقة تحوُّل في تعريفها بل في العلم كله؛ فالتحول على مستوى التعريف، يتمثل في انتقال المفهوم

الاصطلاحي من نسق الرؤية الشاملة إلى نسق التخصيص داخل المجال الواحد، حيث تفرد الجرجاني بوضع نظرية النظم التي أعطاها تعريفا جمع فيه بين النحو والبلاغة، وتحول بذلك التعريف من جامع بين ما في الثقافات من خصائص بلاغية، وناظر ما في المجتمع من سياقات تحيط بعملية التواصل إلى تعريف خاص الخاص، الذي يدفع المتأمل إلى ما في علم النحو من وجوه وخصائص، وإلى ما في علم البلاغة من مميزات ودقائق. يقول الجرجاني: " اعلم إنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه، فنستند إلى اللغة، ولكنَّا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يُصنع فيها. فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع، والفاء للتعقيب بغير تراخ وثم له بشرط التراخي، وإن لكذا وإذا لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعرا، وألفت رسالة أن تُحسن التخيُّر، وأن تعرف لكل من ذلك موضعه"(١٣).

إنها بلاغة الإدراك والعقل والروية، وهي ملكة لا تتأتى إلا بطول تدبر وفهم، ولا تحصل إلا لدى رأي ثاقب متأمل، عارف بمزايا اللغة وخصائص القول، والنسق الواضح هنا هو النسق المعرفي الذي يبرز مع إرسال القول الذي ينشره قانونا دقيقا، ومسلكا لطيفا، يقول: "وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درْكُ الصواب دركا فيما نحن فيه حتى يشرُفَ موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركا حتى يحتاج في التحَفُّظِ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تَيَقُّظٍ...حتى إذا وازنت بين كلام وكلام، ودريتَ كيف تصنع فضممت إلى كل شكل شكله...وقابلته بما هو نظير له، وميَّزت ما الصَّنعةُ منه في لفظه مما هي منه في نظمِه"(١٤).

وقد يتبدَّى لنا هذا النسق بأنه ذو فروع مختلفة يتصل بعلوم لغوية كثيرة. بل ويكاد يتعداها إلى علم الأصول والتفسير وغيرهما. والواضح أيضا أن ملامح النسق الجاحظي بيّنٌ في ثنايا الفكر الجرجاني، وأول ما يلاقينا من قضايا

التأثر هي الفصاحة التي تُعدُ ركنا متينا في نسق بلاغتي الجاحظ والجرجاني. يقول الجرجاني: "أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي، وتعديل مزاج الحروف، حتى لا يتلاقى في المنطق حروف تثقل على اللسان، كالذي أنشده الجاحظ من قول الشاعر"(١٥):

لا أذيّلُ الآمالَ بعدَكَ إنّي
بَعْدَهَا بالآمَالِ جِدُّ بَخِيلِ
كمْ لهَا موقفًا بباب صَديقٍ
رجعْتْ من نداهُ بالتَّعْطِيلِ
لم يَضِرْهَا والحمْدُ لله، شيءٌ
وانْثَنَتْ نحو عزْفِ نفْسٍ ذهُولِ(١٦)

شرع الجرجاني في بناء نظريته البلاغية من ترسيم أسس البناء وقواعد التأسيس التي تشتغل على اللفظ والمعنى. فمن شروط التأسيس اللفظي الملاءمة التي تعني التناغم في أصوات اللفظ مقبولا في النفس فيندفع الفكر إلى حمله والتدبر فيه.

أما أبو يعقوب السكَّاكي (ت ٦٢٦هـ) فإنه لم يتفرد بتعريف البلاغة بل أخذ مشربها عن الجرجاني، إلا أنه تميز بالدقة في تعريفها ووضع درجات التفاوت البلاغي، فجعل لها سلَّما محكوما بطرفين متباينين يقول:" هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها أعني البلاغة طرفان: أعلى وأسفل، متباينان تباينا لا يتراءى له ناراهما، وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر، متفاوتة؛ فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به...من أصوات الحيوانات، ثم تأخذ في التزايد إلى أن تبلغ حد الإعجاز وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه"(١٧). فالذي يميز هذا التعريف هو نسق التدرج والاختصاص؛ اختصاص في معرفة تراكيب الكلام وأدوارها، حيث يبلغ المتكلم درجة من الإفهام.

والبين هنا أن الرجل قد عقد مزاوجة بين طبقتي الكلام أيضا، وهي التراكيب النحوية وتليها الصور البلاغية. ولعل الرؤية هنا تعيدنا إلى التصور البلاغي عند الجرجاني الذي وحَّد

الدرسين النحوي والبلاغي، فأنتج لنا ما سمُي فيما بعد بنحو الجمل.ثم إن التدرج الواضح في طبقات الكلام وطبقات البلاغة اللذين وجدناهما عند السكاكي هما موجودان أيضا عند الجرجاني ولنتأمل قوله:

"ووجدت المعوَّل على أن هاهنا نظما وتأليفا وتركيبا وصياغة وتصويرا، ونسجا وتحبيرا، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها وأنه كما يفضل هناك النظمُ النظمَ والتأليف التأليفَ والنسْجُ النسْجَ(...).ثم يعضل الفضل، وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيرَه (...) كذلك يفضل بعض الكلام بعضا ويتقدم منه الشيء الشيءَ ثم يزداد فضله ويترقى في منزلة فوق منزلة (...) حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع(...) وتستوي الأقدام في العجز"[١٨].

ويلتقي النصان ويتعانقان في مستويات التدرج البلاغي الذي يقرب التفاوت في صياغة التركيب، وحسن التصوير، إنه"تحوُل ينقلنا من التجزئة إلى الاسترسال ويقضي بنا إلى الاستعاضة عن مفهوم التركيب بمفهوم التدرج"[١٩].

فالاشتغال البلاغي عند السكاكي – ولاسيما تحديد مفهوم البلاغة. وقع عنده موقع الحد الرياضي إذ جعله "في معادلة اتخذ لصياغتها من العبارات ما سمح له بتجريد المسألة، والارتقاء بتعريفه للبلاغة من مستوى المعطيات المتغيرة للإنجازات الخاصة، إلى مستوى الأسس الثابتة للقواعد المشتركة- فجاءت عباراته عامة في معناها غامضة في دلالاتها"[٢٠]. أما نظرته للفصاحة، فإنها محكومة أيضا بطرفين هما: المعنى واللفظ، وحتى يصل المتكلم إلى المعنى ويرفعه إلى أذن السامع وجب خدمة اللفظ وتعبيره، وتخليصه من التنافر، وأن يكون مما استعمله العرب الفصحاء، وجرى على ألسنتها. يقول السكاكي: "وأما الفصاحة فهي قسمان: راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد، وراجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب"[٢١].

ومن شروط تحقق البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ إذ جعل العلم به مرهونًا بالعلم بما دونه. وهذا يتطلب أيضا الإحاطة بالمستويات اللغوية. وعلوم أخرى تتضافر لتحقيق البلاغة منها علم المعاني وعلم البيان، وعلم البديع.

يُعدُّ كتاب "مفتاح العلوم" من أهم المؤلفات البلاغية في التراث العربي، حيث وضع فيه السكاكي الأسس المنهجية للبلاغة عن طريق تصنيفها وتقنينها وفق رؤية منطقية تحليلية متأثرة بعلم المنطق والفلسفة. وقد نال هذا الكتاب اهتمامًا واسعًا من قبل البلاغيين اللاحقين، الذين انكبّوا على شرحه وتفسيره، مما أدى إلى ظهور أنساق بلاغية مختلفة تعكس تطور الفكر البلاغي العربي، نذكر منها:

أولًا: النسق التقعيدي في شرح الخطيب القزويني:

يعد الخطيب القزويني (ت. ٧٣٩هـ) أبرز من لخّص وشرح "مفتاح العلوم" في كتابيه "تلخيص المفتاح" و"الإيضاح في علوم البلاغة". وقد اعتمد على منهجية تقعيدية صارمة تسعى إلى تقديم البلاغة في شكل قواعد وضوابط واضحة. ويتجلى هذا النسق في:

تبسيط تعقيدات السكاكي: إذ قام بإعادة صياغة المفاهيم البلاغية بشكل موجز ومفهوم، واعتمد في تلخيصه على كتاب المفتاح للسكاكي، وأضاف إليه مسائل استقاها من الجاحظ، وأبي هلال العسكري، والجرجاني، والزمخشري، وبدر الدين بن مالك، كل هؤلاء أثروا في بلاغة القزويني، إذ لم يكن مجرد ناقل للمسائل والشواهد، بل تعداها إلى العرض والتحليل والمعارضة في بعض الأحيان، ناهيك على إعادة ترتيب موضوعات الكتاب، غير أن هذا التلخيص على ما فيه من جهد في تنظيم البلاغة وتصنيفها - كما يرى شوقي ضيف - جعلها أكثر انغلاقًا وأقل ارتباطًا بالنصوص الأدبية الفعلية. ولذلك، فإن تأثيره كان مزدوجًا؛ فقد سهّل دراسة البلاغة لكنه في الوقت نفسه جعلها أقرب إلى الدراسة النظرية الجافة.[٢٢].

• التأكيد على التصنيف الثلاثي للبلاغة: حيث حافظ على تقسيمها على علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

• تحويل البلاغة إلى أداة معيارية: ركّز على الضوابط والأسس التي تحدد جودة النصوص.

بينما نجد شكري المبخوت في كتابه: الاستدلال البلاغي، يرى خلاف ما ذهب إليه ضيف في " أن هذه الشروح والحواشي تمثل في تقديرنا أرقى ما وصلت إليه المنظومة المعرفية القديمة من ربط محكم بين العلوم المختلفة؛ من منطق، وعلوم لغوية، وعلم كلام، وأصول فقه، وبلاغة."[٢٣]

ثانيًا: النسق التفسيري في شروح التفتازاني:

قدّم التفتازاني (ت. ٧٩٢هـ) في كتابه "المطوّل" و"المختصر" شروحًا موسعة لكتاب "التلخيص" للقزويني، حيث اعتمد منهجًا تفسيريًا يهدف إلى تفصيل المعاني وإيضاح المسائل الغامضة. فاتسم نسقه البلاغي بـ:

• التوسّع في الشرح والمقارنة: إذ يستعين بأمثلة متنوعة من النصوص القرآنية والشعر العربي.

• التفاعل مع المدارس النحوية واللغوية: يدمج بين البلاغة والنحو لفهم تركيب الجمل وأثرها البلاغي.

• الربط بالجانب الحجاجي: يحاول إبراز دور البلاغة في الإقناع والتأثير.

ثالثًا: النسق الجدلي عند السعد التفتازاني وحاشية الجرجاني[٢٤].

يتميّز السعد التفتازاني (ت. ٧٩٢هـ) بحضور قوي في الدراسات البلاغية، حيث أضاف بُعدًا جدليًا في مناقشته لآراء السكاكي والقزويني. وبرز هذا النسق في:

١. الميل إلى مناقشة الاعتراضات والرد عليها: حيث يتعامل مع القضايا البلاغية من منظور نقدي.

٢. التداخل مع علم الكلام والفلسفة: يحاول إدماج البلاغة في إطار أوسع يشمل المنطق والجدل الكلامي.

٣. إعادة قراءة المفاهيم البلاغية: يناقش مدى دقة تقسيمات السكاكي وإمكانية

تطويرها[٢٥].

رابعًا: الأثر العام لهذه الشروح في تطور البلاغة.

أدت هذه الشروح إلى ظهور تيارين رئيسيين في دراسة البلاغة:

١. التيار المدرسي التقليدي: الذي حافظ على الشروح البلاغية بوصفها نصوصًا معيارية تُدرّس في المعاهد العلمية.

٢. التيار النقدي المجدد: الذي حاول إعادة النظر في التقعيد البلاغي، خاصة مع الدراسات الحديثة التي تسعى إلى استعادة البلاغة بوصفها أداة تحليلية للنصوص الأدبية والخطابية لقد أثّرت شروح "مفتاح العلوم" للسكاكي تأثيرًا بالغًا في تشكيل الفكر البلاغي العربي، حيث تنوّعت الأنساق البلاغية بين التقعيد والتفسير والجدل، مما جعل البلاغة العربية تتخذ مسارًا أكثر تنظيمًا وأقل انفتاحًا على الممارسة الأدبية الفعلية. ويبقى السؤال مفتوحًا حول مدى إمكانية تجاوز هذا النسق التقليدي لصالح رؤية بلاغية أكثر تفاعلية مع الدراسات الحديثة.

أما النظام الذي أقرَّه البلاغيون في تعريفاتهم للبلاغة فقد وُسم باختلاف الآراء لاختلاف المشارب والمنطلقات والأهداف والغايات أيضا. فقد ذهب حمادي صمود في معرض حديثه عن نماذج التعريفات البلاغية التي جمعها من القرنين الثاني والثالث الهجريين إلى أن أصحاب هذه التعريفات ينتمون "إلى بيئات ثقافية مختلفة، فمنهم اللغوي كالخليل والأصمعي وابن الأعرابي، والمتكلم كعمرو بن عبيد وخالد بن صفوان، والكاتب كجعفر بن يحي ومنهم الشاعر كالعُتابي والفيلسوف كالكندي"[٢٦].

والذي نبينه هنا وجود ثلاثة أنساق بلاغية كبرى تنضوي تحتها كل تعريفات البلاغيين القدماء، إذ لم نذكرها لتكرارها وذوبانها في أنساق التحول التي مثلها كل من الجاحظ والجرجاني والسكاكي، غير أنَّ نسق الجاحظ الذي وسمناه بـ: «النسق الثقافي والاجتماعي» يكشف عن وعي مبكر بوظيفة البلاغة في تشكيل الوعي الجماعي وضبط العلاقة بين الخطاب وسياقه التداولي؛ في حين يُبرز النسق المعرفي عند الجرجاني مركزية النظم بوصفه آليةً لإنتاج المعنى، حيث تتأسس البلاغة على العلاقات الذهنية بين العناصر

لا على مفرداتها المفردة؛ أما نسق التدرّج والتخصيص الذي تبلور عند السكاكي.

فيمثِّل لحظة التقعيد المنهجي، إذ انتقلت البلاغة من أفق الممارسة والتذوق إلى أفق التصنيف والتنظيم الاصطلاحي. وبهذا تتكامل هذه الأنساق الثلاثة لتشكل أفقا تفسيريا جامعا، يمكن من خلاله إعادة قراءة التراث البلاغي لا بوصفه تراكم تعريفات، بل باعتباره مشروعا معرفيا متحوِّلا تحكمه رؤية في اللغة ووظيفتها ومجال اشتغالها.

المبحث الثاني: البلاغةُ وخطاباتُ النَّفسِ (بلاغة الإمتاع):

من المساقات النسقية التي حافظت على بلاغة النَّص، وكانت ترافقه وتمنع انحرافه وخروجه عن الأهداف التي رسمت له، تلك التي أطلقنا عليها بلاغة الإمتاع، وهي ما تتلخص في تحريك الذوق والرفع من جماليات النص الأدبي شعرا ونثرا.

فتوجيه الكلمة عبر مسارها التاريخي ظل محروسا من قبل البلاغيين لأنهم يدركون أنَّ "لها مغزًى خاصا في الفن يرتبط بالإمتاع والفائدة... وحين تنحصر دائرتها في فن البلاغة، فإنما تتجه بشكل مباشر إلى الجمال. فالبلاغة في عناصرها كلها إنما تُبنى على الجمال، وتخلق بدائعه وتتصيّدُ مقاصده، وتحقق في الذات والمجتمع وظائفه"(٢٧).

إن معيار الذوق رافق تشكُّل الكلمة وانتظامها في النص منذ ميلادها الأول في العصر الجاهلي، وصارت آنذاك لعبة الروح يمتلكها الشاعر ويسعد بها غيره ممن بلغت أسماعهم قصائد حيكت في أعماق الصحراء أو على ظهور الخيل والجمال، أو في رحلة صيد دفع إليها عنفوان الشباب، وقوة التأهُّب للذود عن الشرف والقبيلة. كل هذه السياقات رفعتها الكلمة إلى نفوس المتلقين، ومنهم البلاغيين، فكانت لهم المادة التي التفوا حولها، ونقَّبوا في سرها، فوقفوا بذلك على ضروب اللفظ، وصنوف المعنى، وانقسموا في ذلك مذاهب، فمنهم من يرد الجمال إلى اللفظة المفردة، ومنهم من يرده إلى التأليف والنظم مثلما فعل عبد القاهر الجرجاني.

١- المطلب الأول: جماليات النص البلاغي:

نظر الجاحظ إلى اللفظة المفردة، وراح يفحص أصواتها ويضع قوانينها، من تلاؤم وانسجام في الصوت، إذ جعل هذا معيارا ذوقيا لتأسيس جماليات النص البلاغي، وصار له اعتبار في الحكم على النص بالحسن والقبح، ويكون هذا نتيجة المران والمهارة في التمييز بين الفروق الدقيقة في الصوت، فتستريح الأذن لكلام دون آخر لحسن إيقاعه، وترفض غيره لما فيه من تنافر[٢٨]، " فالانشغال والاهتمام بتجنب التنافر بين الكلمات على حساب الاهتمام بتجنب التناقض بين الأفكار"[٢٩].

وقد سار على دربه كل من الرماني وابن سنان الخفاجي وابن الأثير فهؤلاء جميعا أكدوا أن التلاؤم الصوتي أساس في فصاحة اللفظ ومن ثم في بلاغة الكلام، وحذاهم في ذلك الجرجاني الذي وظَّف حديثه عن الصوت في نظرية النظم؛ نظم اللفظة المفردة، يقول: "واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقُل على اللسان، داخلا فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز، وإنما الذي نذكره ونفيِّل رأي من يذهب إليه، أن يجعله معجزا به وحده، ويجعله الأصل والعمدة"[٣٠].

فتأكيد البلاغيين الأثر النفسي، لأن الطريق إلى قلب السامع مشفوع بحسن صياغة الكلام، والملاءمة بين اللفظ والمعنى، وإصابة المغزى، يقول الجاحظ: "وهم يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، ويقولون: أصاب الهدف إذا أصاب الحق في الجملة. ويقولون: قَرْطَسَ فلان، فأصاب القرطاس، إذا كان أجود إصابة من الأول. فإن قالوا رمى فأصاب الغُرَّة، وأصاب عين القرطاس فهو الذي ليس فوقه أحد"[٣١]. ويضيف مدعما رأيه بعلاقة الكلام بالمستمع: "ومتى شاكل ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقا، ولذلك القدر لفقا... كان قمينا بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع"[٣٢].

كما ذكر أن البلاغة وسيلة لاستمالة القلوب، وتحريك النفوس ففي قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[٣٣]. فإن الله تعالى لا يقصد بلاغة اللسان "وإن كان اللسان لا يبلغ من

القلوب حيث يرد إلا بالبلاغة"[٣٤].

أما الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) فقد وقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣٥]

وقال: "فإن قلت: لِمَ قيل: من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصِّيها شجرة لا تبقى من جنس الشجر، ولا واحدة إلا قد بُريتْ أقلاما"[٣٦].

وأما السكاكي فقد تدبر بعضا من الآيات القرآنية ووجد بلاغته بلاغات، وكلامه جوهر الكلام، يقول وهو ينظر في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[٣٧]، فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرَّة الثمينة لا ترى درجتها تعلو، ولا قيمتها تغلو، ولا نشتري بثمنها، ولا تجري في مساومتها على سننها ما لم يكن المستخرج لها بصيرا بشأنها، والراغب فيها خبيرا بمكانها، وثمن الكلام أن يوفي من أبلغ الإصغاء، وأحسن الاستماع حقه، ولكن يتلقى من القبول له، والاهتزاز بأكمل ما استحقه، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالما بجهات حسن الكلام"[٣٨].

فقوة التأثير تكون بدرجة معرفة أسرار التركيب وخصائصه فالقرآن "مادة جمالية حية فاعلة يتفاعل معها المتلقي، فيستبطن دلالتها ويعتصر وظيفتها ليستمد خصائصها المتجددة والمرتبطة بالكلمة القرآنية المعجزة"[٣٩].

المبحث الثالث: البلاغةُ وخطاباتُ العقلِ (بلاغة الإقناع):

يمتلك العربي تراثا بلاغيا هو أنموذج في المعرفة اللسانية؛ لأنه يضطلع بكل مميزات العلم المتعلقة بالمنهج والفكر، وإذا أردنا البحث عن بنية العقل العربي فإننا سنجده في بلاغته، ومن نياتها وعلومها الثلاثة التي بنيت وفق المتصورات الذهنية لحياة الإنسان العربي التي تتحرك في ثلاثة أطر، إطار المعنى، وإطار اللفظ، والجامع بينهما وهو التوشيح والزخرف. فالطرح هنا يفرض علينا البحث في بلاغة العقل، أو بالأحرى أين تكمن هذه الخطابات؟

هل في لغة النص؟ أم في ما وراء النص من تأويلات تحمل معها الأدلة والبراهين التي تمثلها الاستعارات والكنايات والمجازات بشكل عام؟

ظل الجرجاني ومن معه ممن صنعوا النص ورفعوه للمتلقي، وفيا لقوة الإقناع عن طريق عرضه لنظرية النظم التي راح يبسط بذورها في ثنايا كتبه، وفي كل مرة كان يطل علينا بطلع جديد. فما النظم إلا وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو[٤٠]، وأن تنظر في وجوه النحو وفروقه وتعرفها، وتحسن تطبيقها. فالمعرفة تلاحقك في كل وقت وحين وأنت مضطلع بصناعة الكلام وهذه المعرفة تتعلق باكتمال نضج القوانين اللغوية التي تجعل مسلك الكلام واضحا في ذهنك وذهن المستمع، فإذا تحقق لديك النظم فاعمد إلى تحسين كلامك وتجميله بحكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس[٤١].

والواضح أن الجرجاني يبسط أمامنا رؤية معرفية مبنية على الاستقراء والتعدد؛ استقراء كلام العرب وشعرهم، وتعدد وجوه النحو وفروقه، فما يتحكم فيها هي المقاصد التي تتعدد أيضا بسبب الموقع والاستعمال[٤٢].

وتلوح لنا الاستعارة الجرجانية من وراء النصوص النماذج التي رصدها للوصف والتحليل، لتخليص الفهم والعلم من المعارف الخاطئة التي سادت عند البلاغيين ممن عاصروه أو سبقوه.

فالنظرية الاستعارية عنده تتشكل من قاعدة وطرفين أساسيين هما: المطابقة والمعنى والنظم. وهذه الأسس الثلاثة التي أشار إليها طه عبد الرحمان في فهم النظرية القائمة على الجدال ودحض الآراء السابقة بل وتصحيحها عن طريق النسق القائم في دلائله على ترديد عبارات نحو:" قلتم...قلنا".و "فإن قيل... قيل...ماهو إلا كذا وكذا"". وكيف يكون كذلك مع أنه كذا وكذا"[٤٣].

وهذا النمط من المناقشة يفرض نسقا جدليا قائما على المزاوجة بين نقد القديم وبناء الجديد[٤٤].

فالبناء الجديد عند الجرجاني تمثَّله طه عبد الرحمن فيما أسماه بمبادئ الادعاء الثلاثة ومقتضياته الثلاثة أيضا وهي كالآتي:

أ-مبدأ ترجيح المطابقة:ومقتضاه أن

الاستعارة ليست في المشابهة بقدر ماهي في المطابقة.

ب-مبدأ ترجيح المعنى: ومقتضاه أن الاستعارة ليست في اللفظ بقدر ماهي في المعنى.

ج-مبدأ ترجيح النظم: ومقتضاه أن الاستعارة ليست في الكلمة بقدر ماهي في التركيب[٤٥].

فالممارسة العقلية للاستعارة تزيل كل تفاوت بين المستعار منه والمستعار له[٤٦]. فضلا عن حدوث تأويل في المعنى، أي حصول المعنى الثاني عن طريق المعنى الأول المباشر[٤٧]. والواضح أن مبادئ العقل حاضرة في تفسير الاستعارة من بينها:

١- المطلب الأول: الاستدلال:

وهو الظاهر من مدارسة عناصر نظرية النظم، فمن تعريف النظم الذي يقول فيه: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها. وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلَّ بشيء منها"[٤٨]. فالقوانين اللغوية مكمنها العقل، إنه هو الذي يتحكم في الدلالات فينسِّق بينها ويقوِّيها، فيجعل المعنى ظاهرا متميزا عن طريق التراكيب التي تحفظ هذا المعنى. ثم إن النَّظم يتحقق على مستوى الذهن الذي تحدث فيه كل عمليات إنشاء التركيب التي تحركها المقاصد فتغذي المعنى التصوري الذي ينزل إلى عتبات اللفظ فينتظم في تراكيب يتلقاها السامع فيقنع بها " فليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[٤٩].

فالرؤية الواصفة لنظرية الاستعارة تقوم على بنيات العقل وحجاجيته "وكأن الحجاج عند الجرجاني يكمن في القدرة على تحويل الادعاء إلى حقيقة حجاجية. وفي إقناع المتلقي بأن مَّن رآه -في استعارة: رأيت أسدا، أسدا في شجاعته وقوته."[٥٠]

٢- المطلب الثاني: الحجاج:

لا تغيب عن طرح الجرجاني فكرة الحجاج، بل إنه يعرض آراءه بمنهج حجاجي قوي تقوم فيه الحجة على الإقناع الممكن، وتكون جملة الحجج

التي ساقها قائمة على دعوى الصدق و دعوى الاعتراض؛ فالذات المرسلة تفرض وجود معنى حقيقي للجملة، أما الذات المستقبلة للخطاب فتقوم بدور حجاجي معارض لوجود معنى حقيقي للجملة، ولهذا فالحجاج يقف على طرفي نقيض هما: القبول والرفض.

أما مشروع السكاكي فهو استمرار لمشروع الجرجاني الذي عكف عليه ليشرح فكرة المعنى ودورانها في النحو والبلاغة. وكان منطلقه من دراسة معاني التراكيب في الكلام، أي ما يحدث لهذه التراكيب من عدول عن النظر النحوي ودخولها في الاستعمال، فتكون بذلك حلقة الوصل بين النحو والبلاغة. ومن القضايا التي عنى بمدارستها – إلى جانب التركيب – علم المعاني الذي أرسى دعائمه الاصطلاحية، وجعله قسما من أقسام البلاغة. لأنه أدرك أهميته الآتية من كونه جهازا نظريا لدراسة النص.

تمثل الطرح الموازي عند السكاكي في ثنائية المعاني الأول والمعاني الثواني التي تقابل طرح الجرجاني الثنائي الذي اصطلح عليه الدلالة الوضعية والدلالة العقلية.

إن المعاني الأول هي بحث في المستوى التجريدي للتركيب الذي يرتد إلى النظر النحوي "وهي مدلولات التراكيب مطلقا، أي خارجة عن أي سياق كلامي ومقامي".[٥١] وأما المعاني الثواني فهي "الأغراض التي يُساق لها الكلام، ولذا قيل مقتضى الحال هو المعنى الثاني، كرد الإنكار ودفع الشك مثلا"[٥٢]. فالاستعمال هو المجال الحيوي الذي تخرج فيه التراكيب من وضع نحوي إلى آخر بلاغي، هذا الوضع تميزه السياقات المحيطة به والمقاصد التي يرنو تحقيقها. يقول السكاكي: " اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ".[٥٣]

فالعلاقة بين التركيب والقصد "بمثابة علاقة ملزوم ولازم يجري فيها قصد المتكلم"[٥٤]، فالجريان أو الاستعمال مهم في بلاغة السكاكي، وهي من القضايا الأساسية التي ميَّزت فكره، إذ

إنَّ البلاغي يراقب الاستعمال اللغوي عند العربي بدويا كان أم حضريا، ويرصد كل الملاحظات التي عنت له ليخلص بجملة من الضوابط يوجه بها الخطاب. وما فكرة مقتضى الحال التي ركز عليها السَّكاكي وجعلها شرطا أساسا في كل عملية تواصلية إلا دليل على ما ذهبنا إليه من قراءة للنسق البلاغي عنده فمقتضى الحال يتحكم بصفة قوية ومباشرة في توجيه التراكيب وجعلها على صفة من الصفات، ووجه من الوجوه، يقول: "فكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حدٍّ ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقَبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"[٥٥] فقيمة المقام واضحة عنده،إذ جعله شرط استقامة الكلام ووضوحه وبلوغه المرام.

إن للسياق درجات ترتفع وتنخفض بحسب قوة الكلام ومناسبته للظروف المحيطة به[٥٦]. كأن يكون المخاطب منكرا للحكم، فيجيء الكلام الموجه إليه مؤكدا تأكيدا قويا[٥٧]. والخيط الجاذب بين اللفظ والمعنى ومقتضى الحال والقصد هو الاستدلال الذي يوصلنا إلى فك الروابط الخفية التي تجمع لحمة التركيب البياني.

إنَّ ما يمكن الوقوف عليه من هذا الطرح هو أن البلاغة العربية مرَّت بمراحل التشكل والتأسيس والتنظير، هذه المراحل رافقتها طروحات كثيرة كادت تكون مكررة، لو لم يكن الجاحظ والجرجاني والسَّكاكي، الذين بسطوا لنا الرؤية ووضحوها ونظَّموها وفق معايير علمية كانت شفيعا لإنقاذ هذا العلم من النسيان و الإهمال.ثم إنهم وضعوا بين أيدينا أنساقا بلاغية متنوعة تنطلق من حفظ المعرفة ومراقبتها إلى مراقبة البلاغة في استعمالاتها المختلفة لتصحيح المسارات وتوجيهها.

فارتقاء النص العربي في المدونة العربية المفتوحة يجعل البلاغة في منأى عن الانحراف طالما أنَّ علماء القرن الرابع والخامس والسادس ميزوا هذا العلم بمنهج وظيفي تداولي، وبسطوه بين أيدي مستعملي اللغة عبر الأزمنة المتعاقبة.

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى أن الأنساق

البلاغية ليست مجرد مفاهيم نظرية، بل هي منظومة معرفية متكاملة تشكلت عبر مراحل تاريخية طويلة، بدءًا من الجاحظ وابن المعتز، مرورًا بالجرجاني والسكاكي، ووصولًا إلى الشراح والمفسرين الذين سعوا إلى تقعيد البلاغة وتطويرها وفق منهجيات مختلفة. ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يأتي:

١- يُعرّف المقال الأنساق البلاغية بوصفها آلية تنظيمية تربط بين المشروع (أي الفكرة أو الخطة التكوينية الأولية) والإنجاز (أي التطبيق الواقعي في النصوص)؛ مما يظهر العلاقة الجوهرية بين البناء النظري والتنفيذ العملي في البلاغة.

٢- أثبتت الدراسة أن البلاغة العربية تشكل نسقًا معرفيًا متكاملاً، لا يقتصر على البلاغة والبيان، بل يشمل أبعادًا معرفية ونقدية وتحليلية تجعلها أداة قوية لفهم النصوص وتفسيرها.

٣- أظهرت الدراسة كيف تحولت البلاغة العربية من مشروع فكري قائم على الاستقراء والتفسير إلى نظام تطبيقي قابل للقياس والتطوير، ما انعكس على تحليل النصوص القرآنية والأدبية عبر العصور.

٤- تأثر الانتقال من المشروع إلى الإنجاز بمجموعة من العوامل، منها السياق الثقافي واللغوي والتاريخي، بحيث تتشكل الأنساق البلاغية وفقاً لإطارها الفكري و الاجتماعي. وهذا يفسر التنوع في استخدام الأنساق البلاغية عبر العصور؛ فمن النسق الثقافي والاجتماعي، إلى النسق المعرفي، ونسق التخصيص و النسق التقعيدي، والنسق التفسيري، والنسق الجدلي.

٥- لم تكن الأنساق البلاغية عشوائية، بل هي نتاج تخطيطٍ مسبق؛ حيث يُملي المشروع، الذي ينبثق من الأفكار والرغبات البلاغية، شروطاً ومعايير توجه نحو إنجازٍ متناغم يحقق المقاصد الخطابية.

٦- توصلت الدراسة إلى أن البلاغة العربية رفعت من مقام الكلام العربي،ونظرت في العلاقة بين اللغة من جهة والفكر والنفس من جهة ثانية، فدعت إلى المطابقة بينهما حين صياغة الكلام وبلوغ مقاصده الكبرى فتحققت في العقل العربي بلاغة الإقناع وبلاغة الإمتاع.

الهوامش:

١- ابن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص ٢٠

٢- الجاحظ البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥، ج١، ص ٧٩.

٣- المصدر نفسه ، ج١، ص ٥٦.

٤- البيان والتبيين ، ج١، ص ١٠٦.

٥- المصدر نفسه ، ج١، ص ١٦٢.

٦- بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٩، ٢٠٠٩م، ص ٢٥.

٧- آل عمران / ٧.

٨- مريم / ٤.

٩- كتاب البديع، شرحه وحققه : عرفان مطرجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م ، ص١٥.

١٠- المصدر نفسه، ص ١٦.

١١- كتاب البديع، ص ٦٠.

١٢- التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م، ص٣٨٨.

١٣- دلائل الإعجاز ، شرحه وعلق عليه ووضع فهارسه : محمد التنجي ، دار الكتاب العربي ، ط٣، ١٤٢٠ه -١٩٩٩م، ص ١٩٢-١٩٣.

١٤- دلائل الإعجاز ، ص ٩١.

١٥- المصدر نفسه ، ص٦١.

١٦- البيت من بحر الخفيف وهو لابن يسير و قد ذكره الجاحظ في البيان والتبيين، ينظر: دلائل الإعجاز، ص ٦١.

١٧- السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٤١٥-٤١٦.

١٨- دلائل الإعجاز، ص ٨٣ - ٨٤.

١٩- بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، المنوال البلاغي العربي من البناء القائم إلى البناء الممكن ، منشورات مخبر: نحو الخطاب وبلاغة التداول، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس، ٢٠١٤ م، ص ١٣٢.

٢٠- المرجع نفسه، ص ١٣٣.

٢١- السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م، ص ٤١٦.

٢٢- ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة ، ط٩، ص٣٥١.

٢٣- الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر

وكلية الآداب والفنون ، منوبة ط١، ٢٠٠٦، ص١٣٦.

٢٤- ينظر: سعد الدين التفتازاني ، المختصر شرح تلخيص المفتاح، حققه : عجاج عودة برغش ، دار التقوى، دمشق الشام ، ط١، ١٤٤٢هـ- ٢٠٢١م.ص ص٢١٥، ٢١٩، ٢٢٣،٢٣١، ٦٢٩.

٢٥- المصدر نفسه ، ص ١٦٤.

٢٦- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسة، ١٩٨١م، ص ١١٤.

٢٧- حسين جمعة، في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م، ص ١٠.

٢٨- محمد عابد الجابري،بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان ، ط٩، ٢٠٠٩م. ص ١٦.

٢٩- أحمد مطلوب، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٨٩.

٣٠- دلائل الإعجاز ، ص ٥٢.

٣١- البيان والتبيين، ج١، ص ١٤٧.

٣٢- المصدر نفسه، الموضع نفسه .

٣٣- النساء،/ ٦٣.

٣٤- البيان والتبيين ، ج١، ص ٢٣٥.

٣٥- لقمان، / ٢٧.

٣٦- تفسير الكشاف، خرّج أحاديثه وعلق عليه، خليل مأمون شيحا، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٩،ص ٨٣٩.

٣٧- النور/ ٣٦،٣٧

٣٨- مفتاح العلوم، ص ٢٢٦.

٣٩- حسن جمعة ، في جمالية الكلمة، دراسة جمالية بلاغية نقدية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٢م. ص١٥،١٤.

٤٠- دلائل الإعجاز ، ص ٧٧.

٤١- المصدر نفسه، ص ٧٩.

٤٢- ينظر المصدر نفسه، ٨٢.

٤٣- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م. ص٣٠٤.

٤٤- ينظر المرجع نفسه، ص٣٠٥.

٤٥- اللسان والميزان،ص٣٠٥.

٤٦- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم المعاني ، تحقيق : محمد الإسكندراني ، وم. مسعود. دار الكتاب العربي ، بيروت٢٠٠٥، ص٢١٣.

٤٧- ينظر : دلائل ، الإعجاز ، ص ٢٠٧.

٤٨- المصدر نفسه، ص٧٧.

٤٩- المصدر نفسه، ص٥٦.

٥٠- وليد فرحان، التحليل التداولي والحجاجي للاستعارة (مقال) ضمن كتاب أنطولوجيا المعرفة اللغوية، إعداد وتنسيق: مؤيد آل صوينت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومكتبة عدنان، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.ص٢٢١.

٥١- خالد ميلاد، المعنى عند البلاغيين، السكاكي نموذجا (مقال) ضمن أعمال الندوة التي نظمها قسم العربية بجامعة منوبة، أفريل ١٩٩١م، منشورات كلية الآداب، منوبة تونس، ص١٦٢.

٥٢- التهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون، دار قهرمان للنشر والتوزيع اسطنبول، ١٩٨٤م، ج٢، ١٠٨٥.

٥٣- مفتاح العلوم، ص١٦١.

٥٤- شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر وكلية الآداب والفنون والإنسانيات ،جامعة منوبة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٠٠.

٥٥- مفتاح العلوم ، ص١٦٨.

٥٦- ينظر: مفتاح العلوم ، ص١٦٩.

٥٧- شكري المبخوت ، الاستدلال البلاغي، ص١٠١.

المصادر والمراجع:

١- أحمد مطلوب، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢- بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، المنوال البلاغي العربي من البناء القائم إلى البناء الممكن، منشورات مخبر: نحو الخطاب وبلاغة التداول، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس، ٢٠١٤ م.

٣- التهانوي ، كشّاف اصطلاحات الفنون، دار قهرمان للنشر والتوزيع اسطنبول ، ١٩٨٤م.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥ م.

٥- حسين جمعة، في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢م.

٦- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسة، ١٩٨١م.

٧- خالد ميلاد، المعنى عند البلاغيين، السكاكي نموذجا (مقال) ضمن أعمال الندوة التي نظمها قسم العربية بجامعة منوبة، أفريل ١٩٩١م، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس.

٨- الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرَّج أحاديثه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٩- السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

١٠- شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر وكلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة ، ط١، ٢٠٠٦م.

١١- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط٩.

١٢- ابن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٣- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.

١٤- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم المعاني، تحقيق: محمد الإسكندراني ، وم. مسعود. دار الكتاب العربي ، بيروت ٢٠٠٥.

١٥- عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز، شرحه وعلق عليه ووضع فهارسه : محمد

التنجي، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م .

١٦- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان ،ط٩، ٢٠٠٩م.

١٧- ابن المعتز، كتاب البديع ، شرحه وحققه: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٣٣هـ -٢٠١٢م .

١٨- وليد فرحان، التحليل التداولي والحجاجي للاستعارة (مقال) ضمن كتاب أنطولوجيا المعرفة اللغوية، إعداد وتنسيق مؤيد آل صوينت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومكتبة عدنان ، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.